حيرة الفكر فى معنى الحياة

من المشاهد فى الأزمنة الحديثة أنه كلما أبدت الحروب نواجذها ، واستعر أوارها ، جرّت فى أذيالها خراباً شاملا ، ودماراً كاملا ، وتغيرت الأوضاع وتبدلت الأفكار وتشتتت الأذهان ، وحارت الألباب ، ويئست النفوس من بلوغ السكينة والاستقرار ، وصاح ذوو العقول الراجحة صيحة هلع ووجل من تقدم الاختراعات العلمية ، تقدماً يشفقون من أن يودى بتراث المدنية التليد فى عالم الفكر الرفيع والفن الجميل . ولا غرو أن الحروب الحديثة بلغت شأواً من الفتك والتدمير لم يكن ليدور بمخيلة الأوائل السالفين ، وأن ما يقاسيه البشر من ويلات القنابل الصاروخية والذرية أشد هولا مما تصوره دانتى فى جحيمه . من ثم نرى النفوس عقب كل حرب ثائرة على الأوضاع التى سبقتها ، حانقة على القيم التى اعتنقتها ، مهيأة لانقلاب عام ، معدة لتقويض دعائم مقاييس وأوزان تخالها أفلست إفلاساً تاما وقادتها إلى الهاوية والهلاك ، فينشط حينئذ الباحثون يقدحون زناد فكرهم عساهم يهتدون إلى إزالة الأنقاض الدارسة وإقامة أسس جديدة تعين المرء على إدراك شئ مما أُغلق عليه فهمه من أسرار الكون الغامضة ، وألغاز الحياة المتناقضة . وثمة فئة من الفلاسفة والكتاب يلمسون عبث أى كفاح أو جهاد فيسلسون القياد لليأس والقنوط ويتذرعون بالأجل المحتوم ليبينوا أن الوجود مآله الفناء ، والانسان مصيره العفاء ، ولا يرون مسوغاً للعمل ، ولا يقفون على معنى للحياة ، فيؤثرون الخلاص من الواقع متى وجدوا للخلاص سبيلا . ولعل خير وسيلة للخلاص أن يكبّوا على تأليف كتب أو نشر مقالات يصبون فيها جام غضبهم وحنقهم محاولين إقناع قرائهم بسخف الحياة وتجردها من أى معنى . وهم لا ينفكون ينفثون حسرتهم ويبثون لوعتهم ، كأن فى إفراغها على القرطاس ما يهدئ روعهم أو يخفف همهم ، حتى تلقى أفكارهم بعض الحظوة - أو تقع موقعاً حسناً لدى بعض النفوس ، فيرتاح بالهم وتطمئن سريرتهم .

ومن المشاهدات الغريبة تهافت الجماهير فى أوربا بعد أن وضعت الحرب الأخيرة أوزارها على اعتناق مبادئ سلبية هادمة لا سبيل معها إلى مواصلة أسباب الحياة والاشادة بآراء بعض الكتاب الذين يتزعمون مدرسة التشاؤم ويؤلفون نوعاً من الأدب القاتم العنيف لا يدع للمرء بصيصاً من الأمل يستعين به على تحمل همومه وأرزائه . وكلما زادت عوامل القلق والجزع والتذمر بين الشباب زاد إقبالهم على ذلك الأدب اليائس المضطرب، أدب العدم والفناء ، واضمحلت لديهم عوامل الجلد الذى يعين على البقاء . ولعل رواج ذلك الأدب القلق يرجع إلى أنه يتقن تصوير الحيرة والجزع والضجر الذى يحس به الشباب إحساساً عميقاً ، أو لأنه يمعن فى تحليل الروح الثائرة النافرة التى لا تجد اللذة إلا فى الخوض فى أعماق نفسها وغوص الخنجر فى الجرح محاولة أن تكشف فى قاعها شيئاً من الجمال الذى حرمته فى الحياة الواقعة . وقديماً قال نيتشه : « إن الامعان فى الألم يصبح مصدراً للذة » .

نعم ! لقد انقضى زمن نظرية « الفن للفن »وهى وليدة عصر الوفرة والبذخ والترف الذى ساد أوربا خلال القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين ، وترك الكاتب أو الشاعر برجه العاجى ونزل إلى معترك الحياة اليومية يخوض غمارها ويدافع فيها عما يراه حقا . ولذا رأينا فى العصر الحالى كثيرين من الكتاب النابهين والشعراء النابغين يتناولون فى الصحف والكتب والمجلات مسائل سياسية واجتماعية يدلون فيها بآرائهم ويسوقون حججهم ، بل رأينا بعض الكتاب وقد أرادوا أن يؤلفوا بين الجهاد النظرى المثالى وبين الجهاد الفعلى الواقعى ، يطرحون جانباً راحتهم وطمأنينتهم ويقحمون أنفسهم فى حروب تضطرم نارها بعيداً عنهم ، دفاعاً عن فكرة أو مبدأ اجتماعى ، فيبذلون دماءهم ويجودون بأرواحهم على مذبح عقائدهم . وقديماً لقى الشاعر الانجليزى العظيم لورد بيرون حتفه حين تطوع فى حرب استقلال اليونان . وقريباً حمل الروائى الفرنسى مالرو السلاح واستل سيفه فى معركة نائية عنه إذ انخرط فى سلك الجيش الشيوعى إبان الحرب الأهليه فى الصين ، كما نزح أرنست همنجواى عن بلده الهادئ فى أمريكا ، وحارب فى صفوف الجيش الجمهورى إبان الحرب الأهلية فى أسبانيا .

بيد أن اندماج الكاتب فى الحياة العادية ونزوحه عن برجه العاجى

لم يعودا على الانسانية فى كثير من الأحيان بنفع كبير ، بل ربما أصابها من جراء ذلك ضر عظيم . فقد شغل بعض الكتاب أنفسهم بقليل أو كثير مما يشغل به عامة الناس أنفسهم ، واضطربوا بعهم فيما يضطربون فيه من جد أو لهو ، فباء كثير منهم بالخيبة والحسرة ، وكأنهم بعد أن خبروا ما يدعى أعمالا جليلة ، لمسوا ما تحويه هذه الأعمال من فراغ ، ووقفوا على ما تخفيه من سخف أجوف وقالوا إن الانسان عدم ولا يمكنه أن يتمخض إلا عن العدم ، فهو فان وأعماله كلها متسمة بطابع الفناء .

وإنى اليوم أرغب فى عرض كتابين لكاتب فرنسى ممتاز تناول فى جميع مؤلفاته ومسرحياته التى أنشأها فكرة واحدة سيطرت على ذهنه وحواسه سيطرة تامة ، ألا وهى فكرة العدم وسخف الحياة التى أشرت إليها فى مقدمة هذا البحث . أما ذلك الكاتب فهو ألبير كامو Albert Camus وهو شاب نشأ وترعرع فى شمال إفريقية بدأ نجمه يتألق فى سماء الأدب خلال عام ١٩٤٢ إذ نشر مقالات وبحوثاً فى عدة مجلات أدبية وصحف سياسية فى مدينة الجزائر استرعت اهتمام الأدباء والجمهور على السواء . ثم رحل إلى فرنسا وقت تحريرها وساهم بقلمه فى صحيفة يومية من كبريات صحف باريس هى جريدة « كومبا » *Combat* (الكفاح) وأول ما استلفت الأنظار من كتبه الأدبية قصة سماها « الغريب » وبحث سماه « أسطورة سيزيف » وهما الكتابان اللذان نويت التحدث عنهما فى هذا المقام . وعلاوة على ذلك ألف ألبير كامو مسرحيتين إحداهما تدعى «الالتباس» *Le malentendu* والأخرى «كاليجولا»[1] *Caligula* وقد مثلت كلتاهما على أهم مسارح باريس (الأخيرة على مسرح Hébertot منذ عامين) ونالتا نجاحاً باهراً رغم أنهما قصتان يدور فيهما الحوار حول مسائل فلسفية عويصة الفهم يتعذر على المتفرج العادى إدراكها ، إذ تمتّان إلى ذلك النوع من المسرحيات التحليلية التى يكون مدارها تفسير حالة نفسية أو تسويغ عمل يبدو عجيباً من الوجهة السيكولوجية وهو ما اصطلح عليه الفرنسيون بلفظ pièce à thèse .

---

(١) وقد نقل هذه المسرحية إلى العربية الأستاذ رمسيس يونان (دار الكتاب العربى أبريل سنة ١٩٤٧) .

ويلاحظ أن كامو اختار قالب القصة أو المسرحية ليسوق إلى القارئ نظرياته الفلسفية ، وليبرهن على صدق آرائه وصحة أفكاره ، وهى هى لم تتغير سواء فى القصة أو المسرحية ؛ فالفكرة الانشائية واحدة والعامل النفسى واحد خلال مختلف مؤلفاته ، وحتى الألفاظ تكاد تكون واحدة فى بعض المواقف التى يتناول سردها . لذا يشعر القارئ عند مطالعة أكثر من كتاب لهذا الكاتب أنه لا يسعه صد سحر حججه الدامغة الراسخة ومنطقه القوى العنيد ولا سيما أن أسلوبه نقى رقيق ينساب فى عذوبة خلابة لا تصنع فيه ولا تمويق .

وأبدأ الآن بعرض قصته « الغريب » ثم أردفها ببحثه الفلسفى « أسطورة سيزيف » .

الغريب *L'étranger* (N.R.F.)

يروى لنا ألبير كامو قصة شاب فوجئ يوماً بنبأ وفاة أمه ، فسافر متثاقلا إلى البلد الذى كانت تقضى فيه آخر أيامها بين رهط من الشيوخ فى ملجأ للعجزة ، ثم سار فى موكب الجنازة متباطئاً منهوكا كأن الأمر لا يعنيه فى شئ ، وكأن العربة التى كانت تتهادى أمامه فى مشيتها ، لا تنقل رفات أمه إلى مثواها الأخير . وبعد أداء المراسم المعهودة عاد أدراجه تواً إلى مدينته حيث قابل صديقته مارى ورافقها إلى دار السينما لمشاهدة رواية مضحكة . وفى ذات يوم دعاه جاره ريموند إلى قضاء يوم على شاطئ البحر للتمتع بأشعة الشمس الدافئة وللسباحة فى مياه البحر الصافية ، فلبى الدعوة ، واستصحب معه صديقته مارى . وبينا هو يسير مع رفيقه بمحاذاة الشاطئ إذ هجم بعض الأعراب على ريموند واعتدوا عليه ، وطعنوه بمدية فسالت منه دماء غزيرة ، وكان أحد هؤلاء الأعراب وهو أخ فتاة عربية اتخذها ريموند خليلة له قد بيّت النية على الانتقام لشرف أخته ، وقد أتيحت له يومئذ فرصة تنفيذ خطته الأثيمة . وبعد أن قام الراوى بتضميد جرح صديقه تركه فى صحبة بعض الرفاق واستأنف السير وحده بغية الرياضة والتسلية ، إلى أن وصل إلى بقعة منعزلة حيث فوجئ برؤية الأعرابى الذى اعتدى على صديقه ، مستلقياً على الأرض ، وما إن لمحه الأعرابى حتى وقف منتصباً ، ووضع يده فى جيبه كأنه يتفقد شيئاً ، فوقف الراوى أمامه

دون حراك ، وأشعة الشمس المحرقة مسلطة على عينيه تكاد تبهر بصره وتعميه وجبينه يتصبب عرقاً ، والعرق ينحدر رويداً رويداً إلى مآقيه حتى يلسع جفونه وناظريه ؛ فتقدم خطوة إلى الأمام كى يتقى الحر اللاذع ، فما كان من الأعرابى إلا أن أخرج من جيبه مدية وفتحها ، فانعكست أشعة الشمس على الصلب فلمع السلاح لمعاناً ذهبيا حتى لقد خيل إلى المسكين فى ذهوله أنه أصيب بطعنة فى جبينه ، فبدرت منه حركة عصبية آلية ، وأخرج مسدساً وأفرغ منه رصاصة أردت خصمه قتيلا ثم طفق يطلق عليه أربع رصاصات أخرى وهو جثة هامدة غير واع ما فعل ولا مدرك ما أتى .

والجزء الثانى من هذه القصة خاص بمحاكمة القاتل . وأهم ما يلفت نظر القارئ من بدء القصة إلى نهايتها جمود شاذ و برود عجيب يتملكان الراوى خلال كل حركاته وسكناته ، وكأنه شارد تائه غائب خابى الوجدان لا يعى شيئاً مما يحدث له ولا يعبأ بأى شئ يقع تحت بصره أو سمعه ، فكل شئ لديه سواء . أما موقفه أثناء محاكمته فلا يختلف فى كثير أو قليل عن مواقفه السلبية السابقة إزاء كل مايضطرب حوله من أحداث أو أفعال ، فلا يعدو موقفه وهو فى قفص الاتهام موقف المتفرج إلى مسرحية لا تعنيه من قريب أو بعيد كأنه غريب هائم وطئت قدماه أرضاً لايفقه لغة أهلها أو تقاليدهم . وهو رغم جموده الصادق مالك وعيه ، حاد البصيرة ، نافذ النظرات ، لا تفوته شاردة أو واردة من تفاصيل الاجراءات القضائية المعقدة التى يلهو بها قوم يبدون له كممثلين يقومون بأدوارهم فيحكمون أداءها . وهو لم يذرف دمعة واحدة كما لم تجد عيناه بعبرة واحدة خلال تشييعه أمه إلى اللحد ، لا يشعر بأى ندم على إثمه الشنيع ولا يؤنبه ضميره ولا يحس بضعف أو خور أو يأس رغم طول إقامته فى السجن ، و إنما قضى عليه أن يستمع إلى مرافعات النيابة العامة والدفاع ولا يرى سبيلا للخلاص من المهزلة التى تحاك حوله إلا عند إسدال الستار والنطق بالحكم . وأخيراً يصدر الحكم بادانته و إعدامه بقطع رأسه على المقصلة . وحينئذ يبدأ المسكين يتمسك بأهداب أمل واه ضعيف وهو قبول الطعن المقدم منه لتخفيف العقاب . ومافتئت خواطر متناقضة ونوازع متشعبة تختلج قلبه وتجوب مشاعره وهو قابع فى جحر سجنه يحاول إقناع نفسه بتفاهة الحياة الدنيا وسخفها مردداً ان الحياة أمر غير مستساغ وأن الموت آت لا ريب فيه ؛ فليس ثمة فرق بين

أن يموت الانسان فى الثلاثين أو السبعين من عمره ، وهو فى آن واحد يشرد ذهنه إلى احتمال العفو عنه فيشعر فى سويداء نفسه بفرح عميق يسعى إليه سعياً حتى يغمره فلا يألو جهداً فى كبت هذا الاحساس المتدفق وكتمه حتى لا تصرعه خيبة الأمل .

وأخيراً علم المسكين أن قد حم قضاء لارادّ له ، ودخل عليه فى غياهب سجنه قس يزجى إليه النصح والارشاد و يهيئ روحه لمقابلة بارئها ، فاستشاط غضباً وثار كالبركان وأمسك بتلابيب رجل الدين وطفق يهزأ بنصحه ويسخر من عقيدته الراسخة و إيمانه الوطيد .

وفى الحوار الختامى بين السجين ورجل الدين زبدة فلسفة البير كامو . لذا لايسعنى إلا أن أنقل بعض هذا الحوار لدلالته الواضحة على أفكار المؤلف :

سأل القس : « أيبلغ تعلقك بالحياة هذا الحد ؟ ألم يجل بخاطرك مرة أن تصبو إلى حياة أخرى ؟ » فأجابه السجين : « أنه يتمنى حياة أخرى ولكن مناه لن تعدو التمنى ، كما يتمنى الانسان أن يكون ذا جاه أو ذا فم جميل أو بارعاً فى السباحة » . فأردف القس : « وكيف تتخيل الحياة الأخرى ؟ » فأجابه فورا : «حياة أكون فيها قادراً على ذكر هذه الحياة». فربت القس على كتفه وقال : « إنى معك يا بنى وسوف أصلى من أجلك » . وهنا ثارت ثائرة المحكوم عليه وسب رجل الدين وهزه وشرع يحدث نفسه فى حدة وحنق : « إن هذا القس يبدو واثقاً بما يزعم رغم أنى غير واثق أنه حى إذ هو يعيش كالأموات ، أما أنا فيبدو أن يدىّ فارغتان ولكنى واثق بنفسى ، واثق بكل شئ ، متأكد من حياتى ومن موتى الدانى القريب . إن هذه الثقة تتملكنى كما أملكها . إنى أملك على الأقل حقيقة واقعة وهى موتى . إنى قضيت حياتى على نمط معين وقد كان فى إمكانى أن أحياها على نمط آخر . قد صنعت هذا ولم أصنع ذاك ، وماذا بعد ؟ النهاية واحدة ، لا شئ ، ليس لأى شئ أهمية ، لقد بات يهمس فى أذنى خلال كل حياتى السخيفة وسواس يسوّى فى نظرى بين كل شئ . وما شأنى بوفاة الآخرين ! إنى لا أبالى بحب أمٍّ أو بحياة أخرى ، لا أبالى بملات أختار بينها ما دام أن مآلا واحداً سوف يختارنى أنا كما يختار معى الملايين من الناس . » وظل المسكين يسترسل فى تلك الصيحات التى كانت تدوى بين

ضلوعه إلى أن خمدت ثورته . وعندما أيقن أن نفسه تخلت عن الأمل وأن الأمل تلاشى أمامه ، رنا بنظره إلى أديم السماء الصافى تتالق فيه النجوم والرموز وشعر أن الطبيعة تشاطره ركوده وأنها تردد صدى جموده ، وحينئذ ذاق طعم السعادة وعرف أن السعادة لم تزايله بعد .

تعرض علينا هذه القصة وضعاً غريباً يلائم تمام الملاءمة أوضاع المذهب الوجودى existentialisme الذى يتزعمه فى العصر الحاضر الفيلسوف الفرنسى الشهير جان بول سارتر . أبان لنا كامو كيف أن السخف L'absurde قد يكون ماثلا فى عمل واحد ، فيسيطر هذا العمل المفرد على مصير حياة بأسرها ويحيدها عن مجراها ؛ إذ أن قتل الأعرابى على يد بطل القصة وهو الراوى أتى نتيجة حتمية لسلسلة من المصادفات . وينسجم هذا الرأى مع قول سارتر فى قصته المسرحية *Huis-Clos* أن الانسان يحمل طوال حياته وزر عمل واحد ، وأنه يحمل مدى العمر وطأة عمل مفرد أتاه ، ولا يحكم على الإنسان إلا عمله ولو كان عملا واحداً منعزلا ؛ إذ العمل يُعَرِّف الإنسان ، والانسان إنما هو عمله ﴿

ويمتاز بطل قصة كامو بجموده وفتوره إزاء كل شئ ، فسيان لديه أن يقدم على الزواج وأن يحجم عنه ، أن يدان وألا يدان ، أن يشتغل فى باريس وأن يشتغل فى الجزائر ؛ فهو يشعر أنه غريب عن المجتمع وتقاليده ، بعيد عن دعائمه وعاداته ، لادخل له بسننه وقواعده ، ويرى الحياة سخيفة لامعنى لها ، لاتنطبق على شئ ولاتنسجم مع شئ. يدرك أن العيش عبث والاسترسال فيه لهو وعبث ، وأن الانسان يتخبط فى دياجير حالكة لا سبيل معها إلى الخلاص كما يتخبط هباءً رأس السجين على جدران سجنه الشامخة . ولن يفوتنى أن ألمع إلى الشبه العظيم بين قصة كامو « الغريب » وقصة كفكا « المحاكمة » *Le Procès* إذ تكاد وقائع القصتين تكون مماثلة ؛ فقد لحظ كفكا سخف الحياة وعبثها كما لمسها كامو ، وإنما وجد كفكا منفذاً للنجاة فى الايمان بحياة أبدية ، ولو أنه إيمان غامض حائر ، كما سبقه إلى الاعتصام بالخلود الفيلسوف كير كيجارد على حين طرح كامو جانباً هذه الفكرة ووجد العزاء فى حل آخر أسوقه الآن عند ولوج كتابه الثانى .

أسطورة سيزيف *Le mythe de Sisyphe* (N.R.F.)

يأتى الانسان كل يوم بأعمال معينة فى مواقيت محددة ، فهو يستيقظ من نومه فى الصباح ثم يختلف إلى مكتبه أو مصنعه أو حقله ، ثم يتناول طعام الغداء ثم يعود إلى عمله أو ينصرف إلى ملهى ، ثم يؤوب إلى بيته فيتناول طعام العشاء ، ثم يأوى إلى مضجعه حتى يأخذ الكرى بمعاقد أجفانه ، وهكذا دواليك طوال أيام الأسبوع وطوال الشهور وطوال السنين . ويظل يسترسل فى حياة على هذه الوتيرة حتى تلوح الحياة فى نظره مجرد عادة يستمر فى اتباعها دون وعى إلى أن يقف الموت رجاها . ولكن قد يحدث للانسان ولو مرة أن ينهض وسط هذا الدوران الصاخب والاضطراب الدائب ليسأل نفسه لاهثاً متعباً : « لم هذا وما الفائدة من الحياة وما معناها ؟ » فيحس بحيرة شديدة تذهله وخور فجائى يقعده . وفى هذه اللحظة يفيق من سباته وينعم النظر فى حياته ويمحص عواملها ويفحص الدوافع التى تحفزه إلى تجرع الغصص فى سبيل المحافظة على وجود و إطالة أيام لا يلحظ فارقاً بين أمسها وغدها ، فيبين له سخف الحياة وعبثها الهازل ، ويطغى عليه جزع وحنق ، ويذعن للسأم والقلق . وهو لا يشهد إذ يجيل الطرف حوله إلا أجلا محتوماً ومصيراً معلوماً لا راد له ولا منفذ منه ، يرى الناس أجمعين يموتون كما تموت السائمة الحقيرة ، يرى كل المخلوقات تتلاشى وتختفى فى قاع هوة حالكة سحيقة ، يرى كل شئ يستحث الخطى مهرولا نحو الزوال والعفاء ، وحينئذ يحس بمرارة ويأس يحزّان فى نفسه ويشعر بلهيب نار متقدة تتلظى فى أعماق قلبه ، فينقم ويتبرم ويحتد ويسائل حائراً تائها شارداً « لماذا ؟ » تلك هى الحال التى يسميها ألبير كامو « الوعى بالعبث » La conscience de l'absurde وهى مرحلة تلازمها حال أخرى هى الهياج الداخلى ؛ إذ أن الشعور بالسخف ينطوى حتما على الثورة عليه .

وثمة نتيجة هامة يرتبها كامو على هذا الشعور بالعبث ، وهى « الاقدام على الانتحار » . فاذا ما اقتنع الانسان بسخف الحياة وجب عليه أن يساير المنطق حتى النهاية ، فيؤثر الفناء العاجل على حياة تجردت فى رأيه من أى معنى وخلت من أية حقيقة، تآمرت على أن تطوّح به بعد فترة إن طويلة و إن وجيزة

إلى فناء أكيد لا مفر منه . ولما كان الموت الحقيقة الوحيدة التى يلمسهـا الانسان فلماذا لا يريح نفسه من عناء وشقاء لا طائل تحتهما ويحصل على الخلاص فى الفناء ؟

وقديماً ألقى هملت هذا السؤال عينه فى كلمته المأثورة « البقاء أو الفناء . To be, or not to be? وهذه الصرخة تتردد فى حنبات كل إنسان أدرك أنه لن يبلغ نفسه أبداً ، وأنه عاجز عن فهم الحياة وكنهها .

هناك رد واحد على هذا السؤال ، كما أن هناك دافعاً واحداً يحفز الانسان على احتمال المشقـات وتجشم الصعاب ، وهو الأمـل أى الأيمان بحياة أخرى سرمدية تبدأ عندما تنفض النفس عنها غبار الحياة الأولى الوقتية ، وتبدو للمرء كأنها تكملة أزلية للحياة الأرضية . ولكن كامو لا يؤمن أو هو لايكتفى باجابة يجهل دعائمها ولا يستطيع التحقق منها فيتشكك فيها ولا يقبلها دليلا ينهض على إثبات عكس مايزعم بل إنه يصر على أن تلك الاجابة هروب من السؤال ؛ إذ السؤال حسب وضعه هو الآتى : هل يستطيع الإنسان مواصلة السير فى حياة مجردة من احتمال استئنافها ، وهل له أن يعيش بلا أمل ودون رجاء ؟ . . .

هناك نتيجة ثانية رتبها كامو على الشعور بالعبث وهى بلوغ « الحرية » . وليس يقصد بالحرية معناها الدارج المألوف ، وإنما يرمى بهذا اللفظ إلى فكرة أخرى أبينها بايجاز فى الشرح الآتى :

كلما وضع الانسان نصب عينيه هدفاً يبلغه أو صالة ينشدها أوغل فى السعى إلى تحقيقها وألفى للحياة معنى ، ولكن ثمة من يختلج فى نفسه إحساس عميق بعبث السعى وعدم جدواه ، وتسابق كل شئ نحو العدم والفناء . يقول كامو إن شعور الانسان بعدمه يحيره ويفك أغلاله ، حتى إذا ما أتى بعمل فى حياته العادية لم يعره بالاً ولم يعبأ به لعلمه بمصيره المحتوم ، وحينئذ تجنح نفسه إلى الفكاك من كل قيد شاعرة أنها حرة طليقة لا تأبه بظاهر أى شئ ولاتكلف بحطام أى شئ . فاذا ما انطلقت النفس على هذا المنوال أحست بخلو وفضاء وبلغت حالا من الحرية تؤهلها لتذوق راحة تعمها وتغمرها . وقد كشف لنا الروائى الروسى الشهير دستويفسكى النقاب عن نفسية أحد أبطال قصته *Les possédés* يدعى كيريلوف قاده تفكيره ومنطقه بعد أن عجز عن

إدراك سر الخلود إلى بلوغ هذه الحرية التى يحدثنا عنها كامو . يقول كيريالوف فى أحد مواقفه : « إذا ما استبعدتُ الله من ضميرى أصبحت إلهاً ، وقد بحثت خلال ثلاث سنوات عن خواص تألهى فألفيتها الاستقلال » . وهو يعنى بصيرورته إلهاً أنه حر طليق على الأرض غير مسخر لخدمة خالق سرمدى ، كما أن الفيلسوف نيتشه وصل فى تفكيره إلى هذا القول بعينه إذ ذكر أنه مادام الانسان يعترف بوجود الله نسب إليه سبحانه وتعالى كل شئ وأقر بعجزه عن مقاومة مشيئته على حين أنه إذا أنكر وجود الله تأله الانسان واعتقد أن كل شئ يدين بالخضوع له وحده . وقد أسلفنا القول عرضاً أن الفيلسوف الدانمركى كيركجارد Kierkegaard أدى به تحليله وتمحيصه إلى الوقوف أيضاً على عبث الحياة وزيفها ، لكنه رغم ذلك لم يغرق فى لجة اليأس ، وإنما طفا ونجا من الشعور بالعدم لاعتصامه بإيمان راسخ ثابت لا يتزعزع فى حين غاص آخرون مثل نيتشه ودستويفسكى وكامو وسارتر فى دياجير الشك المدلهمة .

وأخيراً استنبط كامو من إدراك الانسان سخف الحياة نتيجة ثالثة ضرورية يتمخض عنها منطقه كما ينبعث الدخان من النار وهى « الجموح » La passion ونفسيرها أن الانسان لا يملك من الحياة إلا ما مُنحه على الأرض ، فخليق به إذاً أن يعمد إلى التمتع بما تُرك له منها إلى أقصى حدود التمتع ، وجدير به أن يحاول التملص من حدودها الضيقة وآفاقها القصيرة ، فيسعى إلى تنويع حياته ويركن إلى تجديد عيشه . وبما أنه لا قبل له بمد حياته عن طريق الطول إذ هو لا يسيطر على عمره فعليه أن يملأها من ناحية العمق . وضرب مثلا على ذلك دون جوان العاشق المعروف وبطل القصص الأسبانية القديمة ، وقد اشتهر بعدد لا يحصى من المغامرات النسوية . وكان دون جوان يجدد نفسه مع كل امرأة تقع فريسة فى حبال غرامه ، ويدأب على الجرى وراء المغامرات دون أن يعتريه ملل أو كلل ، ويكن لكل امرأة جديدة حبا جامحاً وعاطفة صادقة ، لاينال من جموحه وصدقه تكرار حوادثه الغرامية . كما يضرب مثل الممثل المسرحى إذ يعيش كل ليلة متدثراً شخصية تختلف عن شخصية الدور الذى لعبه فى أمسه ، فتتراكم عليه هذه الشخصيات المتعددة المتنوعة المتنافرة وتطغى عليه حتى تصطبغ بها سليقته وتتلون بها طبيعته ولا سيما أن الممثل إذا أجاد تمثيل دوره تقمص شخصية البطل الماثل أمامه وانتحل صفاته وقلد

حركاته إلى أن يندمج فيه اندماج الماء بالراح . وكم من لاعب مسرحى يأتى دون وعى فى حياته العادية بحركات هاملت عندما يهم بتناول الكأس . ولاغرو إن الطبيعة المصطنعة المتكلفة تؤثر تأثيراً خفياً عظيما فى الطبيعة الأصليـة . كذلك الفنان او الكاتب ، فانه يخلق لنفسه حياة جديدة كلما تفتق عن ذهنه أو خياله عمل فنى وكأنه يُبعث بقدر ما يُخلق .

وصفوة القول أن كامو يرى فى الجموح وفى سعى الانسان لتجديد نفسه وإن أخفق السعى أحياناً احتجاجاً على مصيره المحدود وهياجاً على أفقـه الضيق ومآله المحتوم ألا وهو الفناء والعفاء .

لآن وقد ظهرت فلسفة ألبير كامو جلية للعيان ، يحق لنا أن نسأله عن حظ الانسان على الأرض إذا ما وضح له عبث الحياة ولم يعتصم بحبل الايمان الصادق سيما بعد أن حرمه كامه فسحة الأمل الذى يحدو إلى المثابرة والجلد ولم يدع له سبيلا للنجاة إلا الانتحار أى الفناء . من المشاهد أن من يعمد إلى الانتحار ممن يوقن عن حس ووعى بسخف الحياة وعبث أهدافها نفر قليل جدا لا يؤبه بعددهم ، أفلا يوجد إذاً لدى الانسان المنطقى سبب آخر سوى غريزة البقاء يحفزه على مواصلة السير فى دروب الحياة الشائكة الوعرة ؟ ألا يتخلل يأس الانسان من حظه بصيص من الأمل ؟ ألا تتسلل بارقـة أمل خلال جحافل الظلام الدامس ؟ ألا يرتئى كامو سوى حلين : الانتحار أو الرضا بعيش فاتر جامد ممل ممضّ لا طعم له ولا لذة تجعله سائغاً ؟ يسوق لنا كامو فى هذا المضمار قصة أسطورة يونانية قديمة خلعها عنواناً على بحثـه يرى فيها الرد الشافى .

زعم الاغريق فى أساطيرهم الغابرة أن سيزيف Sisyphe ابن أيول Eole وملك كورنثيا كان رجلا عاتياً جباراً قاسياً مولعاً بالسلب والنهب ، فغضبت لحاله الآلهة وحكمت عليه بعد مماته بغية التكفير عن أوزاره بأن يظل مدى الأبد فى جهنم يدحرج صخرة ثقيلة حتى يثبتها فوق قمة جبل ، وكان سيزيف كلما بلغ بحمله ذروة الجبل الشاهق يرى الصخرة تهوى من عل وتثوى فى الحضيض ، فيدلف وراءها إلى أسفل ويعيد الكرة حتى يصل بها إلى القمة من جديد فتسقط الصخرة مرة أخرى ، وهكذا دواليك لا يدرك غايته أبداً ، وهو رغم ذلك يعيد سيرته الأولى المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة دون

أن يعتريه وهن أو فتور . وقد رمت الآلهة بهذا العقاب الغريب إلى الامعان فى تعذيبه و إيلامه ظنًّا منها أن ليس ثمة جزاء أشد قسوة وردعاً من أداء عمل لا طائل تحته ولا جدوى منه ولا رجاء فيه . لذلك غدا سيزيف مضرب الأمثال عند ذكر عمل سخيف لا يشف إلا عن العبث . ومن أجل ذلك انتشل كامو شخصية سيزيف من جهنم الذى يهيم فى لظاها وعرضه علينا حتى يكون ماثلا أمامنا نتعزى بمصيره ونتجلد بصبره .

وقد تبادرت إلى كامو فكرة رائعة عند تحليله معنى هذه الأسطورة وعنّ له خاطر رائق إذ يقول إن ما يعنى ببحثه ويثير اهتمامه هو تلك الفترة التى تمر على سيزيف وهو عائد أدراجه من عل إلى أسفل ليحمل الصخرة مرة أخرى وهو عالم أنها مصدر شقائه وعذابه . خلال هذه الفترة يجد المسكين مجالا للتنفس، ولإنعام النظر فى حظه العاثر ، وخلالها يثوب إليه وعيه ويفيق من ذهوله . فى هذه اللحظة بالذات عندما يغادر القمة و يهم بالنزول يظهر لنا جليا أن سيزيف قهر حظه وتغلب عليه وبات سيده وغدا أشد صلابة من جلمود صخره الذى يرزح تحت حمله كما ينوء المرء فى الحياة تحت عبء عمل متكرر لا مناص منه ، يبدو سيزيف فى هذه الآونة فاقد الأمل لا يستمسك بأهداب مُنًى كاذبة ، و إنما يعلم علم اليقين أن جهده ضائع ، ويدرك تمام الادراك أن مايبذله ذاهب سدى ،ولكنه رغم ذلك لا يفتأ يعكف على أداء سخرته وهو يصارع حظه إلى أن يصرعه ، وهو يصرع حظه لأنه يحتقره و يزدريه .

و إذا نحن أسلسنا القياد لكامو ساقنا فى ركابه إلى أبعد من هذا الحد فى عالم التصور والخيال ، فهو يردف زاعماً أن سيزيف قد ينتهى به الطواف إلى جنى لذة من شقائه وتحويل عصارة عرقه إلى شئ يشبه الهناءة لشعوره أنه قابض على زمام حظه مسخر صخرته العاتية ملكا له ومتاعاً .

ويختم كامو كتابه قائلا : « إن الكفاح لبلوغ الذرى يكفى فى حد ذاته لملء قلب الانسان و إفعامه ، ومن ثم يكون حقيقاً بنا أن نتخيل سيزيف سعيداً » . هو يرمى بهذا إلى أن الكفاح فى ذاته خير من النتيجة، والسعى نفسه أكرم وألذ من الاكتفاء .

ويخيل إلىّ ان الكاتب أغفل أمراً هامًّا أو على الأخرى شيد نظريته على افتراض لا يسيغه المنطق السليم ، إذ أنه جانبنا دون جدال أو نقاش

بفرض لم يكف نفسه مؤونة تفسيره أو دعمه ؛ فهو يفاجئنا بقوله : إن سيزيف يثوب إليه وعيه فى اللحظة التى ينأى فيها عن القمة ، وأنه يشرع فى دحوجة صخرته من جديد وهو مدرك عبث عمله وسخف جهده . ويبدو لى أنه لو صح هذا القول خلال المائة مرة أو الألف مرة الأولى فهو لا يصح إلى النهاية ، وأن سيزيف وهو يدفع الصخرة المرة أثر المرة ولا يلمح أمامه إلا الحجر ، سوف يجمد حسه ويخبو وعيه وتتحجر نفسه فيصير آلة تأتى بحركات معينة فى فترات متقطعة دون وعى أو حس . فاذا صح هذا الاعتراض انهار صرح منطق كامو من أساسه

كما أن اكتفاءه بلذة الكفاح فى ذاته قول مشكوك فيه أيضاً إذ يفوق طاقة البشر . فاذا أيقن الانسان العادى أنه لن يبلغ هدفاً أو بعضاً من الأهداف التى يذوق الأمرَّين فى سبيل بلوغها ، وإذا حرمناه أيضاً حافز الأمل ، ضاق ذرعا بالعمل ورغب عنه واستحوذ عليه اليأس والقنوط نعم ! يعلم الانسان أن كل شئ مآله العدم والفناء ، وأنه طيف عابر على وجه البسيطة ، ولكن ألا يحق له أن يذكر الحديث الشريف « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا » .

وما فائدة الحنق على سخف الحياة والتبرم بعبثها ؟ وما الجدوى من الهياج على حقيقتها المريرة وواقعها الأليم ؟ وأنَّى للعقل البشرى أن يلج أسرارها أو يحل ألغازها ؟ أليس الأفضل أن يكف الانسان عن سبر غور نفسه فى كل لحظة ، وأن يحجم عن تحليل نوازعه ويقلع عن تمحيص خواطره وتشريح روحه ؟ ألا يعد الهرب من الواقع نصراً عليه فى بعض الأحوال ؟ ولئن شق علينا فهم كنه الحياة ومعناها ألا يحق لنا أن نهرع إلى مُثل عليا نسعى إلى إدراكها أو نلقى أنفسنا بين أحضان فن رفيع كالشعر أو الموسيقى أو التصوير عساه يسبح بنا فى أعالٍ تنسينا الهموم والكروب ؟ أليس الأنفع أن نغض الطرف فلانبلبل عقولنا بصوغ سؤال عقيم يتكفل الموت وحده بالاجابة عنه ؟ أرى معنى الحياة مرتبطاً بمعنى الموت . فالموت إذ يطوى الحياة يكشف معناها ، ومن ظلماته ينبلج نور الحقيقة ، كما ينبثق من الليل البهيم الفجر المضئ المشرق .

فؤاد رصفى أبو الرهب